إنتظرت طويلا

قالت لي:

انتظرت أن أرى النهاية.. انتظرت أن أتحدث من قلبي، ألا أُخفق في اختبارات الأيام حين تبتلينا في مدى الصبر على المصاعب، وفي تحمل مرارة اليأس أحيانا ويكون الإنتظار قراراً نتخذه لكي لا نجزم فيما يحيرنا، وياله من خيار صعب تنوء به النفس وتتألم الأعصاب ونصبح معه مثل وريقات الشجر في تشرين، وكلما تساقطنا كلما تراجعت أقدامنا للخلف، للخوف وللحزن، وندمر معه ذكريات تتساقط وأمل يخبو ونظل نلهث إلى مالا نهاية.

ويكون الفراق علاجاً أحياناً لجرح لا يبرأ مثل الكي تماماً وأحياناً يكون مثل البتر، ولكن يالقسوته حين يكون إضطرارياً بسبب واقع لن يتغير أو حاضراً يحمل الموت قطرة قطرة حتى يترك أصحابه فتاتاً لا يتجمع مرة أخرى.

قالت لى:

كانت لحظة الفراق أصعب مما توقعت، اتفقنا على الإبتعاد وألا نتكلم ثانية، ووافق بكل سهولة، لم يبد أي اعتراض وأنا تماسكت أمامه وما هي إلا ثوانٍ ومشينا كل في طريقه، وما أن عدت للمنزل حتى وجدت مقاومتي تنهار تدريجياً وأنا أقاوم وأجاهد نفسي حتى لا تتساقط أي دمعة من دموعي ولكن هيهات، كانت الدموع أقوى من إرادتي، لم أنم، لم يغمض لي جفن، التفكير كاد يقتلني وفي الصباح جريت مسرعة على عملي لكي أنسى، وما أن سمعت بالصدفة أغنية فيروز: لا انت حبيبي ولا ربينا سوا .. قصتنا الغريبة شعلها الهوى صرت عنك غريبة.. إنسانى يا حبيبى.. إنهارت مقاومتي وهبط ضغطي بصورة مفاجئة مما اضطرني للذهاب للطبيب الذى أجرى لي رسم قلب في الحال واخذ يسألني إن كنت قد انفعلت أم لا ووصف لي دواء ونصحني بالهدوء وانه لا شىء يستحق وأن حالتي خطرة بالفعل و ضربات قلبي متسارعة.

بعد أن عدت من زيارتي للطبيب وتناولت العلاج بلا فائدة علمت أنني من الممكن جداً أن أموت وبيننا هذا الجفاء والحزن وأنه ربما يمر بمثل ما أنا فيه من مرض بسبب الفراق، فعظم في نفسي أن أموت دون أن أسمع صوته ولم أجد من أشكو إليه حالي سواه، فقد كنت في حاجة إلى كلمة عطف ورثاء لحالي وإلى الحنان ولوحتى القليل منه فهاتفته وشكوت له مما أصابني ومن عدم وجود أحد يرثى لي أو يشفق علي، هاتفته من وراء عقلي لأنني لو فكرت لحظة واحدة لما فعلت وبمجرد ما كلمته ولمحت في صوته اللهفة والخوف الحقيقي علي بكيت وأنا أحدثه وأخبره بمدى ضعفي وألمي وانني فاشلة حتى في قرار الإبتعاد عنه، فشلت وربما كان ثمن ذلك هو فقداني لحياتي فتألم من أجلي وقال لي أنا وأنت مازلنا على قيد الحياة فلما تبكين أو تحزنين لا يحق لك أن تصلي إلى هذه الدرجة من الضعف خاصة وأن الانفصال قرارك أنت وليس قراري، ثم أنه يجب عليكي أن تقولي لنفسك حتى لو إبتعدنا فنحن ما زلنا على نفس الأرض وتحت نفس السماء ونتنفس

نفس الهواء ونتذكر نفس الذكريات ولن ينسى أحدنا الآخر حتى الرمق الأخير فلم كل هذا الألم ؟

بالفعل هدأت نفسي وعاد لي صوابي ورجعت ضربات قلبي للانتظام وكذلك ضغطي وأخبرني الطبيب بعدها أنه كان يخاف علي ولم يرد أن يخيفني أو يزعجني إذا صرح لي بحالتي. ولكنني علمت وقتها أن الفراق ربما كان قراراً بالموت وأنا لا أعلم.

قالت لي:

ويكون الفراق علاجاً أحيانا لجرح لا يبرأ مثل الكي تماماً، وأحيانا يكون مثل البتر، ولكن يالقسوته حين يكون إضطراريا بسبب واقع لن يتغير أو حاضراً يحمل الموت قطرة قطرة حتى يترك أصحابه فتاتاً لا يتجمع مرة أخرى.

هل مازال هناك من البشر من يحبون ويتألمون ويسهرون الليالي تتساقط دمعاتهم بسبب الفراق هل المشاعر الصادقة مازالت تعيش في القلوب ويهتمون برضا من يحبون.

فقلت لها وقد أهتزت لكلماتها روحي: ربما .. ولكن الأهم من كل ذلك أن يوجد من يستحقون هذا العذاب الذي لا ينتهي وألا يتبعه الندم في النهاية.

فقالت لي: هل هناك اختيار؟ أليست هذه مسائل قدرية خارجة عن إرادتنا؟

فقلت لها: ولماذا يختار لنا القدر العذاب؟صدقيني نحن من نختار ما يؤلمنا نختار أن نتعذب فماذا إذا هربنا سريعاً اذا شعرنا بالبداية وبأن القادم لن تحمد عقباه؟

ولكن ذلك لا يحدث فنحن نستعذب العذاب ونعتاده بل ونُدمنه، حتى يصبح جزءً من نفوسنا، وكأنه كتب على باب الدنيا أن من يسعد أوقاتاً لابد أن يشقى بعدها لسنوات وأحياناً لبقية عمره.

فقالت لي: الطيب أحسن والهروب في الوقت المناسب أوجب علينا.

قالت لي:

بينما كنت أسير أقصد أعيش حياة مملوءة بالرتابة والملل والضجر تعثرت حين إصطدامي به، كان يعبر حياتي كملايين البشر الذين أقابلهم أو ألقاهم مصادفة يومياً. كنت أعلم أنني لن أطمئن لأحدهم يوماً، وربما لا أراهم أيضا ولكن لا أدري كيف رآني وتعلق بي دون أن ألتفت لذلك، وحين إلتفت شعرت بالدهشة، أعلم أنني لم يحدث أن أثرت أي اهتمام أو أي أثر في نفس أحدهم من قبل، ولكن لماذا وكيف؟

مرت الأيام وأنا في حيرة واختلط علي الأمر، هل سنصبح أصدقاء أم أنها قصة قوية ستربطنا للأبد حتى لو افترقنا؟ أخشى من القادم فكم قرأت عن آلام الفراق وليس لى قبل بها.

فقلت لها:

لماذا تفترضين انك ستتألمى ربما كانت أحلى أيامك القادمة وستتذوقين طعم السعادة بعد طول غياب لها.

فقالت: قلبي يحدثني بأن الربيع لم يأتِ بعد وأنما هى نسائم الشتاء المطير وهدوء ماقبل العاصفة.

أخاف على نفسي من الآلام ربما قتلتني بالفعل وليس مجازاً

فقلت لها:

اتركي عنان قلبك ولو قليلاً ربما أرسله الله لكِ حتى يعوضك بالسعادة عن آلام عشتيها طويلا منذ طفولتك ويمنحك الدفء والحنان الذي لم تتذوقينه أبداً حتى من أقرب الناس إليكي أبيكِ وأمك، في إطار من الشرعية التي تليق بك.

فصمتت وفي عينيها أشجان أجابت عن كل ما دار في عقلي من أسئلة، يبدو انها دخلت في اللعبة دون أن تعرف، قالت لي:

- هذه الأماكن كلها ليست لنا، مرت الأيام ولم يعد هناك متّسع لمزيد من الأماني سافر زماننا والآن ليس لنا.

نحن جيل الآباء والأُمهات نشعر بالغربة حتى الكلمات الجديدة لا نفهمها وإذا فهمناها لا نستطع مسايرتها، تمضي بنا الحياة ونحن مذهولين مما وصلت اليه حالنا كأننا من عالم آخر.

يشعروننا أننا نحمل قيماً بالية عفا عليها الدهر، وهيهات أن نتكيف أو نعتاد على مبادىء واخلاقيات جديدة لم نتعلمها ويرفضها ضميرنا، لذلك صرنا غرباء في أوطاننا.

قالت لي:

يتمرد قلبي علي أحيانا لم يعد هذا الحمل الوديع الذي ما إن قسوت عليه إلا وقد استجاب يخيفني كثيراً حين يعصي أوامري وكأنه غيري، ماكل هذه الدموع التي يستعطفني بها لكي أطيعه. ما كل هذه الذكريات القديمة التي يدفعها أمام عيناي لكي ألبي نداءه؟

لما كلما ظننت أنه رضخ للأمر الواقع واستسلم أراه يعاود النحيب فيسقينى من القلق والحيرة ما لا قبل لي به؟؟

وكأنه لن يهدأ إلا بعد أن أترك له العالم وأرحل وأعتقد أنه وقتها أيضا سيظل على رأيه لن يمتثل لأوامري.

خلقنا الله بشراً نحمل بين ضلوعنا القلب كما يتحكم فينا العقل والروح والنفس وكثيراً ما تحتدم المعركة بداخلنا بسبب هذا القلب الذى يأبى أن يكون الخاسر ويصبوا إلى السعادة على طريقته فنحاول

أن نشرح له الأمر ونفهمه أن العاقبة لا ترضيه ولكنه يأبى ويتمسك بقراره كطفل ساذج يتشبث بما يحب حتى لو سبب له الأذى، وما حيلتي عندئذ؟؟

قالت لي:

كثيراً ما يصيبنا الإحباط ممن نتعامل معهم ونظن أنهم يقدروننا ويفهمون تفكيرنا ونفاجأ بأننا واهمون والصورة التي بدت لنا في البداية ما هي إلا قناع زائف يرتدونه لمسايرة الأمور ويخلعونه وقت اللزوم وياليتنا رأينا حقيقتهم أو حتى شككنا فيهم ولكن لا نتعلم إلا بعد فوات الأوان.

فقلت لها: سنرى، الأيام هى صاحبة الكلمة الأخيرة.